

مواجهة الصليبية عند مفكري دمشق

السلمي نموذجاً

د. أحمد حلواني*

يبرز دور المثقفين المتنورين في قدرتهم على حمل مجتمعاتهم وحشهم على مواجهة التحديات أو الاستجابة لها بالانتصار عليها وتجاوزها إيجابياً، وفق نظرية ارنولد تويني، فيقظة الشعوب وتحقيق نهضتها ترتبط بارتقاء أدائها عن طريق الوحدة والإرادة على الخروج من الأزمة بالجهاد والعمل الدؤوب من التصدي لحالات الفوضى والظلم والاستبداد والجهل والابتزاز وتقييد الحرية والاحتلال بما فيه نهب ثروات الأمة من قبل الغرباء والأجانب المحتلين.

والمصلحون المتنورون هم نخبة يعززها المجتمع الحي نتيجة عوامل كثيرة تكون نسغ تكوينات المجتمع الذي ينتمي إليه من تراث عريق وأصالة متجذرة وهوية بارزة ورسالة إنسانية حضارية منفتحة.

* باحث وأستاذ جامعي، عضو اتحاد المؤرخين

ولقد عرفت الأمة العربية هذه الحالات في مراحل تاريخية متعددة إذ لم تصب هذه الأمة بالقنوط ولا بالإحباط المميت، ولا بالإغفاء الدائمة، إذ كانت عند كل انكسار تواجهه تعيد جمع قواها استنادا إلى العوامل التي ذكرناها، عبر نخبويين يرفعون الحضارة وحمل الرسالة في عصر الحروب الصليبية عاشت الأمة انتكاسة كبيرة الانقسام الذي عشت في صفوف العالم الإسلامي. فللمرة الأولى في تاريخ الدولة الإسلامية ثم احتلال بلدان في قلب الدولة الإسلامية وهي أجزاء عزيزة ولها مكانة مقدسة ألا وهي فلسطين والقدس وقد أشار كثير من المؤرخين إلى أن المسلمين فوتوا آنذاك عدة فرص لإحراز نصر كامل وذلك بسبب عدم توحيد صفوفهم وعدم وعيهم لجسامة الخطر الداهم من الغزاة الجدد الإفرنج، إلا أن هذا الوعي بفداحة الخطر لم يتأخر طويلا فلقد برزت الفكرة الجهادية لمقاومة هذا الخطر في مجالس العلماء والفقهاء، وفي إطار الدراسات الإسلامية ومع صعود نجم الزنكيين الذين خرجوا من الموصل متوجهين إلى حلب ثم إلى دمشق برزت بقوة فكرة الجهاد والوحدة وضرورة نبذ الفرقة والتشردم، وكمثال على بروز هذه الفكرة لدى العلماء نشير إلى السلمي أبو الحسن علي بن مسلم الحسن السلمي الدمشقي (452 - 500هـ) وهو من محدثي دمشق وفقهائها والذين نقل عنهم ابن عساكر الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المتوفى سنة 500هـ/1107م.

وقد شهد السلمي وهو في أواخر عمره دخول الصليبيين الشام والقدس فخصص دروسه في جامع بني أمية الكبير للحديث عن فضائل الجهاد، تحريضا لأهالي الشام على محاربة الصليبيين، وألف كتابا في اثني عشر جزءا أسماه "كتاب الجهاد": ذكر فيه معارك الإسلام الأولى ودور المجاهدين، مع ذكر الآيات والأحاديث النبوية التي تحض على الجهاد وتبين مكانة المجاهدين، كما شرح فيه أبعاد الاحتلال الفرنجي، وهم أول من بين أنه هجوم غربي على العالم الإسلامي كله ذو ثلاث شعب: الأولى في الأندلس والثانية في صقلية وإفريقيا، والثالثة في بلاد الشام.

من المفيد أن نتوقف عند معاني الجهاد والمقاومة في اللغة قبل الدخول في تفاصيل كتاب الجهاد. في تفاصيل كتاب الجهاد.

الجهاد:

يقال في اللغة: "جهد" بفتح الجيم و ضمها الطاقة، والجهد والمشقة، يقال جهد دابته وأجهدها إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وجهد الرجل في كذا: أي جد فيه وبالع والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع¹ ويقال: "جهد" في الأمر جهداً، جدّ وطلب حتى وصل إلى الغاية و"جهد" بفتح الجيم، وكسر الهاء شاق واشتد، وأجهد فلاناً: بلغ مشقته، ويقال أجهده على أن يفعل كذا أجبره، "جاهد" العدو مجاهدة وجهادا قاتله "اجتهد، بذل ما في وسعه "الجهاد" قتال غير الذميين من الكفار².

المقاومة:

يقال في اللغة قاومه في المصارعة وغيرها، وتقاوم في الحرب: أي قام بعضهم لبعض³، ويقال: قوّم المعوج: عدله وأزال عوجه، والقوام العدل والقوام بكسر القاف قوام كل شيء عماده ونظامه، ما يقوم به وهو أهل بيته يقيم شأنهم القوامة: القيام على الأمر والمال أو ولاية الأمر، القوامة النهضة⁴.

لم تكن أهمية السلمي في أنه تولى من ركز على الجهاد بمفهومه الدفاعي بدل الجهاد الهجومي أي الجهاد من أجل الفتح ونشر الدعوة، وذلك من منطلق حسّة السليم والتزامه الوطني والعقدي وفكره النير في طريقة حث الجمهور على الاستنفار وعدم الاستكانة للهزيمة وهي صفة من صفات النخبويين المتنورين.

1. أبو بكر الرازي: مختار الصحاح - منشورات دار الحكمة بدمشق عام 1978 - ص 114 -
2. المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 200 - 521 - 3. مختار الصحاح، ص 557 -
4. المعجم الوجيز ص 122

فقد شرع السلمي مع احتلال القدس وهي المدينة التي تضم أولى القبلتين والحرم القدسي الشريف إلى شرح الوضع في دمشق في ظل الدولة البورية والصراع القائم بين الخلافتين الفاطمية والعباسية وكذا الصراع بين دويلات السلاجقة.

وكتاب الجهاد الذي وضعه السلمي كبير لم يصلنا منه إلا حوالي النصف لكن ما وصلنا هو نسخة المؤلف نفسه التي حققها ودرسها الأستاذ الدكتور سهيل زكار في كتابه (أربعة كتب في الجهاد من عصر الحروب الصليبية)¹ الصليبية¹ كما تكمن أهمية الكتاب أيضا بالنسبة لميدان الجهاد في أن كتاب السلمي كتاب فقهي كما هي عادة الكتاب في ذلك الوقت كما فعل كل من القاضي أبو المحاسن يوسف بن شداد صاحب صلاح الدين في كتابه (فضائل الجهاد) وكذلك ما جاء في كتاب "نهاية السؤل والأمنية في علم الفروسية وغير ذلك" لمؤلفه الأقسرائي الحنفي، المتوفى في حدود سنة 750 هـ وفق ما توصل إليه الدكتور زكار أيضا². وكذلك ما ألفه ابن كثير عماد الدين الدمشقي الشافعي في كتابه "الاجتهاد في طلب الجهاد"³ وكتاب العز بن عبد السلام في الجهاد الذي نشر محققا في دمشق.

ونستطيع أن نلاحظ أن السلمي الذي تقدم على كل من ذكرناه من العلماء الذين ألفوا وركزوا على الجهاد لم يحققوا أو يستطيعوا الوصول إلى ما وصل إليه السلمي من ارتقاء في التركيز على الجهاد الدفاعي أو ما نستطيع أن نطبق عليه المقاومة من أجل التحرير من حيث حثه على الجهاد والدعوة إلى الوحدة وبند الفرقة بمفهوم واضح يتوجه فيه إلى الجمهور وفق مفاهيم دينية واضحة أيضا.

1. صدر الكتاب عن دار التكوين بدمشق عام 2007 بتحقيق وتقديم د. زكار - 2. انظر مقدمة مقدمة كتابه "أربعة كتب في الجهاد من عصر الحروب الصليبية" مصدر مذكور ص 20 - 3. انظر كتاب الدكتور زكار الأنف الذكر ص 413

في الجزء الثاني من كتاب الجهاد الذي وصلنا والمحقق نقرأ في بدايته: المشتمل على الحث عليه والترغيب فيه وكيفية وجوبه وما يتعلق به من السير والأحكام وغيرها، وبعض ما جاء في فضائل الشام والثغور، وفي الحوادث الكائنة والأمور وتفسير ما يقع في ذلك من غريب المعاني والألفاظ.

مما عني بجمعه وتأليفه علي بن طاهر بن جعفر السلمي نفعه الله وجعله خالصاً لوجهه ويبدو أن السلمي كان يؤلف كتابه ويدعو في خطبه بالأفكار نفسها ويدلنا على ذلك ما نقل من خطبته في الحث على الجهاد الذي سنشير إلى بعض مقاطعها ونعرض لما كتبه فيما بعد.

يقول السلمي في إحدى خطبه وهي بعنوان "الغزو واجب"، وبالمعنى والموضوع نفسه الذي سنراه في كتابه لم يزل الأمر كذلك أي مواصلة خلفاء المسلمين الجهاد - إلى الوقت الذي تركه بعض الخلفاء لضعفه وقصور يده ثم اتبعه على ذلك غيره للسبب المذكور .. فشئت الله شملهم وخالف بين كلمتهم وألقى العداوة والبغضاء بينهم وأطمع أعداءهم في انتزاع بلادهم من أيديهم فوثبت طائفة على جزيرة صقلية - يقصد غزو النورمان لها ابتداء من عام 454هـ - إلى أن احتلوها بالكامل عام 484هـ. على حين تباين وتنافس "بين الحكام المسلمين" وتملكوا بمثل ذلك بلداً بعد بلد في الأندلس، ولما تناصرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد - يقصد بلاد الشام - من اختلاف أربابها وتفرق أكابرها مع اختلالها واضطرابها أمضوا عزائمهم على الخروج إليها وكانت القدس مهائر أمانهم منها، فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك مفترقة وقلوب غير متفقة وآراء متباينة.. فقويت بذلك أطماعهم ولم يزالوا دائيين في قتال المسلمين، والمسلمون عنهم متناقلون عن حربيهم، وهم في لقائهم متواكلون حتى تملكوا في البلاد ما لم تنته إليه غاية آمالهم، وبلغوا أضعاف ما أرادوه" ويختم هذا المقطع: "والله بكرمه يحبث ظنوفهم باجتماع الكلمة وانتظام شمل الأمة، إنه قريب محجب"¹

1. في كتاب صدر عام 1986. للأستاذ P.M.Holt

ومن خلال هذا المقطع من خطبة السلمي نلاحظ مدى الأهمية التي علقها على فكرة الجهاد، فلقد عدّ توقف المسلمين عن ممارسته سببا في اختلاف كلمتهم وتمزق وحدتهم من جهة، وفي طمع الأعداء بهم واحتلال بلادهم مبتدئين بالمناطق الأقرب متابعين حتى بلاد الشام التي وجدوها ممالك مختلفة متنافسة ومذاهب متعددة مما أغرى باحتلالها نظرا لحالة الضعف هذه.

ثم يشرح مسؤولية الإمام في قيادة الجهاد ووجوبه ألا يمر عام إلا ويغزو نفسه أو بسرياه وفق مصلحة المسلمين.

ثم يقول "فقد تبين مما ذكرت أنه إذا احتيج إلى الجماعة يغزو كلهم فرضا واجبا عليهم و ذلك في مثل هذه الحال التي نحن عليها الآن مع هذه الفرقة الهاجمة على بلاد الشام - يقصد الصليبيين -"

ثم يبين ضرورة النفير في الحال لاسيما مع قلة العدو وبعد ناصرهم - يقصد ابتعادهم عن قواعدهم في أوروبا -

ثم ينادي: "فشمروا عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذب عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاز"

ثم يبين أن الجهاد متوجب على الجميع ويأتي في المقدمة "على من قد خصّه الله بتملك شيء من هذه البلاد فإن وجوب ذلك عليه أكد من وجوبه على غيره منكم لما فوضه الله تعالى إليه من أمور رعيته وفرضه عليه من النظر لأهل طاعته وألزمه إياه من المحاماة عن حوزة الإسلام وبيضته"

ثم يعرب عن عجبه من ولاة البلاد فيقول "فالعجب كل العجب من سلطان يتنهأ بعيش أو يخلد إلى الاستقرار مع إطلال هذه النازلة التي مغبتها استيلاء هؤلاء الكفار، والإخراج من البلاد بالقهر والاحتسار، أو الإقامة معهم والتكتل والتعذيب في الليل والنهار، ثم يناشد بأسلوب تحذيري أن أنفروا: "فوالله والله معشر سلاطين البلاد ومن تبعهم من الأعوان والأحفاد وغيرهم من المستعانة والأحداث والأجناد الأجلاد وأرباب

الطارف من المال والتلاد ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ¹﴾ ثم يؤكد النصر إذا ما اتبع طريق الجهاد ويعود فيؤكد على مسؤولية الحاكم، ويذكر أن الحاكم الذي لا يبادر إلى الجهاد والدفاع عن البلاد يجرمه الله الجنة. ويستشهد على ذلك بالحديث الشريف: "من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرّم الله عليه الجنة"² ويوضح أن النصيحة هنا لها معان كثيرة من حاجة الرعية وحفظها ودفع الأعداء عنها.

ثم يتحدث عن ضرورة تألف ووحدة جميع الناس في كل ديار الإسلام لمواجهة هذه الهجمة، ويطالب بعودة الوثام والصفاء مستشهدا بما كان يفعله العرب حتى قبل الإسلام: "عند الشدائد تذهب الأحقاد"

ثم يصل إلى نقطة هامة فيطالب بمساعدة "أهالي الساحل المحاصرين المجاهدين لأنهم الآن شاغلون للعدو عن هذه البلاد وما يليها ومصر ونواحيها"³. وهو بهذا يؤكد ما ذهب إليه في البداية من تقسيم الغزو الصليبي إلى ثلاثة أقسام:

- الأول في الأندلس

- الثاني في صقلية وإفريقيا

- الثالث في بلاد الشام

فيصبح بذلك مفهوما في الدفاع الاستراتيجي ليؤكد قدرته الفكرية وموسوعيته ونظريته إلى وحدة العالم الإسلامي في مواجهة الغزو الغربي. وإذا ما عدنا إلى "كتاب الجهاد" فسنجد أن ما أكد عليه في خطبته التي عرضنا مقاطعها هي نفسها التي يثبتها في كتابه، حيث يؤكد الجزء الثاني من كتابه أن الجهاد في المسلمين يعني جميع المسلمين وأنه باق إلى يوم القيامة.

1. سورة التوبة، الآية 41. - 2. انظر في كتر العمال ج6 الحديث رم 14738 - 3. انظر النص المتبقي من مخطوط السلمي "160 صفحة" في المجلد 53 من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية د. سهيل زكار.

والسلمي بعد أن يبين وجوب الغزو من أجل الدعوة وحماية الإسلام وأن عمارة البيت والطواف لا يغني عن الجهاد في سبيل الله متوقفا عند ترك بعض الخلفاء للجهاد بسبب ضعفهم أو قصور يدهم، الأمر الذي "شتت شملهم وخالف بين كلمتهم وألقى العداوة والبغضاء بينهم وأطمح أعداءهم في انتزاع بلادهم من أيديهم وشفاء صدورهم منهم، فوثبت طائفة على جزيرة صقلية على حين تباين من أهلها وتنافس وتملكوا بمثل ذلك بلدا بعد بلد من الأندلس"¹

ويتابع السلمي كلامه من استغلال الأعداء تلك الحال في الاختلاف والاضطراب عند المسلمين بحيث وضع الغزاة أمانهم في القدس فيقول:

"فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك مفترقة وقلوب غير متفقة وآراء متباينة مقترنة بدخول كامنة. فقويت بذلك أطماعهم وامتدت إلى ما يرمونه أبواعهم، فلم يزالوا دائبين في قتال المسلمين، والمسلمون عنهم متثاقلون ومتظافرين على حربهم وهم في لقائهم متواكلون، حتى تملكوا من البلاد ما لم تنته إليه عامة آمالهم، وبلغوا أضعاف ما أرادوه من إهلاك أهلها وإذلالهم" متابعا... "حتى لقد تيقنوا أن البلاد كلها صائرة إليهم، وأن جميع أهلها أسرى في أيديهم" داعيا الله أن يخيب ظنونهم باجتماع الكلمة وانتظام شمل الأمة متابعا فيما بعد الحديث عن أهمية الجهاد والغزو لإعلاء كلمة الله وإظهار القوة أمام الأعداء الذين يمكن أن يطمعوا في دولة المسلمين وبهذا يؤكد مرة أخرى أن الغزو ليس للفتح فقط ولنشر الدعوة وإنما لمنع العداء من غزو بلاد المسلمين وهو ما نستطيع أن نسماه بالاستباق الدفاعي وفق المفهوم الاستراتيجي المعاصر.

وبعد أن يتحدث حاثا سلاطين البلاد وأعوانهم وأجنادهم وغيرهم من الشباب الأبحاد بأن ينفروا خفافا وثقالا ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾².

1. المصدر نفسه. - 2. سورة التوبة، الآية 41.

مؤكدًا الظفر بإذن الله يتوقف عند تذكيرهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وعد أهل الشام بالنصر على عدوهم يقول "واعلموا أيضًا رحمكم الله، أن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد وعد طائفة من أمتهم بالنصر على عدوهم وجعلهم من أهل الشام اختصاصاً لهم بذلك من بينهم فلعلكم أن تكونوا أولئك المخصوصين دون غيركم"¹ (ويقصد فيمن حثهم السلاطين والأتباع والأجناد والشباب وما إلى ذلك).

وفي متابعة السلمي حديثه عن الجهاد يوضح أن المخصوص هم أهل بيت المقدس وأكناف بيت المقدس ونحن هنا. لا نفرق بين أهل المقدس وأهل الشام هي من بلاد الشام، وأهل القدس توجهوا إلى الشام حين احتلال الصليبيين للقدس كما يتوجه إليها كل أبناء بلاد الشام، والسلمي يتحدث عن مفهوم وحدة بلاد الشام حين قوله: "وجب على جميع البلاد والمنسوبة إلى بلاد الشام النفير إليه حين تحصل الكفاية... لأن خطة الشام كالبلدة الواحدة"² وإذا كان السلمي يخلط في كتابه بين فقه الجهاد وضرورته وطرقه وأنواعه فإنه يحاول باستمرار أن يمزج ليؤكد أن مخاطبته لا تقصد الجانب الفقهي فقط إنما جانب التحريض والحث لجمع الكلمة وتوحيد الصف مدعماً كلامه بالأحاديث النبوية والآيات والروايات المثبتة عن الصحابة على طريقة ذلك الزمان في الكتابة مقسماً كتابه إلى أجزاء وأبواب مخصصاً كل باب لجانب من جوانب الجهاد.

ومن خلال عرضنا لهذه المقتطفات من خطبة السلمي وكتابه يتضح لنا مدى إحساس العلماء بمخاطر الهجوم الصليبي على البلاد، ونستطيع أن نستنتج من حثه الحكام على الاستنفار والجهاد أن هؤلاء الحكام لم يكونوا ليستشعروا مسؤوليتهم في مواجهة العدوان ولهذا فقد شغل العلماء دوراً كبيراً في حثهم عامة الناس مستفيدين من فكرة الجهاد التي رسخها الإسلام

1. المصدر نفسه ص 50 - 2. المصدر نفسه ص 47.

كمفهوم أساسي وواجب على جميع المسلمين للدفاع عن الأمة والحفاظ عليها، وتأمين استمرارية حيويتها ونشاطها وروح العطاء والبذل والتضحية فيها، وقد تلقف ابن عساكر صاحب الكتاب الموسوعي (تاريخ دمشق) الدعوة إلى الجهاد من العلماء الذين تقدموا عليه ويأتي السلمي في مقدمهم وجد فيها الطريق الصحيح والكفيل بضمان بقاء الأمة ومدها بوسائل النصر ورفض المرض داخل الجسم، فقرأ ما وضعه العلماء في الجهاد وتابعه معمقا ومبرزا أهميته، رابطا بين معانيه الدينية والدنيوية، وقد خرج للسلمي سبعة محالس ورد ذكرها ضمن مؤلفات ابن عساكر في معجم الأدباء (5-143) بعنوان تخريج سبعة محالس لشيخه الإمام أبي الحسن السلمي والكلام عليها.

و مع هذا فإن إتباع ابن عساكر لهذا الأسلوب لا يقلل من أهمية دوره في مجال التأليف في الحز على الجهاد فيكفي أن اقتنع بجدواه وتابعه وطوره وأكثر منه موظفا معلومات غزيرة مع طاقاته ومكانته الرسمية والشعبية للحز على الجهاد من أجل طرد الغزاة والتحرير وإقامة دولة الوحدة الأمر الذي يعطينا فكرة واضحة عن استمرار وجود النخبة المثقفة والمؤمنة بحرية البلاد والوطن وأهمية قوتها للدفاع عن قيمتها وشعبها.

ولعل هذه الصورة التي قدمناها وتلك الروايات التي عرضنا قسما منها، تعطي فكرة عن التاريخ الذي عاشه السلمي وابن عساكر والجو المحموم الذي كان يحيط بدمشق، في هذه الحقبة العصيبة، فلقد كانت دمشق تخضع لحكم السلاجقة البوريين ومنازعتهم، وتمر بأزمات كبيرة من جرّاء خصام الأخوة وهجوم الأعداء حتى أشرفت على السقوط في أيدي الصليبيين عند وصول قوات الحملة الصليبية الثانية (1147-1149م) لولا الدفاع المستميت من أهلها وتدخل نور الدين محمود الذي ورث عن أبيه إمارة حلب والذي جاء ظهوره على المسرح السياسي، وهو يحمل عقيدة الجهاد في نفسه وطموح الأبطال في صدره والرغبة الجارحة في إقامة دولة قوية متماسكة، ليشكل نقطة تحول كبيرة في مسار الأحداث.

وأمام هذه الأحداث المتوترة والتي كانت تعيشها دمشق سواء من حيث حاكمها الضعيف أو تهديد الصليبيين لها ومحاولة إحاطتها وحصارها، فقد أراد معظم سكانها الخلاص من هذه الحالة بحكم طبيعة أهل الشام الراضين أبداً للقيّد والمذلة المتعقلين بأهداب القوة والحرية وفضاءاتهما المبدعة متأثرين بدعوات الجهاد للذود عن الوطن ومقاومة الغزاة وابتوا يتطلعون إلى نور الدين بعد أن ذاع صيته وقويت شكيمته وسيطر على بعلبك القرية من دمشق فوجهت الدعوات إليه للقدوم إليها وتسلم السلطة فيها وإقامة وحدة بلاد الشام، رفضاً للهزيمة وتمسكاً بالأرض والعقيدة ومواجهة للعدوان وانتصاراً لكل أبناء الأمة ومواطنيها كما هي طبيعة أهل دمشق المعتزة بالأمة كلها المزهوة بالحرية ورفض الاحتلال الأجنبي مؤكدين المقولة التي اقتبسها أمير الشعراء من بطولات دمشق وقيمها الأصلية والتي تكررت في مقاومتها للاحتلال الفرنسي:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يذوق

جزاكم ذو الجلال بني دمشق وعز الشرق أوله دمشق
والتي تكلفت كلها بالنصر على الغزاة وطردهم واستعادة الحرية
بفعل الروح الجهادية المقترنة بالفداء والتعلق بالحرية، مستذكّرين التفاف
أهل الشام جيشاً ومتطوعة حول نور الدين ومن بعده صلاح الدين وتحقيق
الوحدة والنصر واسترداد القدس.

وكذلك مقاومة المجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي وتحقيق الجلاء
والاستقلال في ظل غياب الجيش النظامي.

ولعلنا في تبياننا لأهمية المتطوعة نستطيع المقارنة بين الجيش المحترف
والمقاوم المتطوع وأثر ذلك في المعارك والمواجهة، وقد يكون من المفيد
إجراء دراسة مقارنة عبر التاريخ الوسيط والحديث عن فضائل المتطوعة
من المقاومين في مقابل سيئات الاحتراف وإشكالاته، ومقاومة الغزو الإسرائيلي

المجرم للبنان في تموز 2006 والبطولات التي أظهرها المقاومون المتطوعة التي فاجأت الغزاة الاسرائيليين وأفشلت خططهم وفق شهادة جميع المراقبين وإضافة إلى تقرير فينو غراد اضطر الأعداء إلى الانسحاب وإيقاف العدوان، مما يثبت أهمية هذه المقاومة كطريق للوقوف في وجه الغازي وتحرير الأرض.

خاتمة:

إن الأمم تمر بمراحل مختلفة في حياتها، من ضعف وقوة وانقسام ووحدة، وغزو وأطماع، وصمد ومقاومة، وأمتنا العربية هي كباقي الأمم التي مرت في هذه المراحل ولا تزال.

فالغزو الصهيوني، المدعوم من قوى الاستعمار والهيمنة العالمية ليس مجرد ظاهرة جديدة في حياة أمتنا العربية، بل إنه عدوان يكمل سلسلة الاعتداءات والغزوات التي تعرضت لها هذه الأمة عبر مسيرتها التاريخية.

ولقد استطاعت أمتنا أن تصد الغزوات الكثيرة التي تعرضت لها سواء غزوات المغول والتتار القادمة من الشرق، أو غزوات الإفرنج الصليبيين القادمة من الغرب، ولا بد لكل أمة حية وهي تمر بمراحل صعبة من أن تستفيد من تجاربها ومقاومة الغزو الإفرنجي الممتد عبر مئتي سنة تعطينا الخبرة والدرس والعظة، فلقد استطاعت الأمة بفضل الوعي العام وتبني ثقافة المقاومة بعد أن تحققت لها القيادة، المؤمنة، الشجاعة، المخلصة أن تواجه شراسة الهجمة الصليبية وتنتصر عليها، وتم ذلك بالوحدة بعد نبذ الخوف والوهن والتردد وروح الاستسلام وبالبناء والتمسك بالأرض والأهداف بعد ترك الهجرة والهروب، وبالصمود والمقاومة بدل ذل الهزيمة والاستسلام.

وما أحرانا اليوم والهجمة الصهيونية الإمبريالية، جاثمة على صدر الأمة مهددة الوجود والمستقبل أن نعود لندرس الخبرات المكتسبة ونعمل على هديها خاصة وأن تجربة المقاومة اللبنانية الأخيرة التي فاجأت العدو وأرهبتة مثال قريب وناجح بوضوحه ومعانيه.

إن الظروف التي تعيشها أمتنا مشابهة للظروف التي عاشتها في مرحلة الحروب الصليبية، فأمتنا تواجه غزوا صهيونيا إسرائيليًا في فلسطين المحتلة، والفرقة تنخر الأمة والدسائس والأكاذيب والنفاق يعج في حياتها، والجري وراء المصالح الآنية والسريعة وهو المحرك الرئيسي فيها على الرغم من أن الطريق واضحة، والشعارات المرفوعة صحيحة ونسغ الأمة في شبابها وفي غالبية علمائها ما زال حيا ينبض بالصدق والقدرة على العطاء، وكل ما ينقصنا هو المبادرة مع صدق النية في إنجاز ما بدأناه مع فجر عصر النهضة العربية الحديث فمقاومة الاستعمار وخوض معركة الاستقلال وتكملة درب النضال والمقاومة من أجل تحقيق مقاومة عربية عامة تعتمد على الأمة وإمكاناتها فتحقق النصر على الأعداء وتبني لتواكب مسيرة التطور الحضاري العالمي فتعطي للعالم من ثقافتها وعلمها وإنتاجها الحضاري كما أعطت من قبل بإرادة حرة لا وفق إيرادات خارجية لا تريد الخير لها.

إن أوروبا الحديثة نهاية القرن العشرين هي أوروبا الوحدة على الرغم مما فيها من قوميات مختلفة ولغات متعددة وتاريخ مليء بالصراعات والحروب فيما بينها فما بالنا نحن العرب ونحن أمة واحدة... لقد أضعنا الكثير من الزمن فهل نتعظ؟ ونستفيد وأرواح الشهداء ما تزال ترفرف فوق أجوائنا تنادينا أن قاوموا متحدين مستذكرين القول المأثور (عند الشدائد تذهب الأحقاد).

الحواشي:

1. أبو بكر الرازي : مختار الصحاح - منشورات دار الحكمة بدمشق عام 1978 - ص 114
2. المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 200م ص 521
3. مختار الصحاح، ص 557
4. المعجم الوجيز ص 122
5. صدر الكتاب عن دار التكوين بدمشق عام 2007م بتحقيق وتقديم د. زكار
6. انظر مقدمة كتابه - أربعة كتب في الجهاد من عصر الحروب الصليبية - مصدر
مذكور ص 20
7. انظر كتاب الدكتور زكار الأنف الذكر ص 413
8. في كتاب صدر عام 1986 للأستاذ P.M HOLT أستاذ تاريخ الشرقين الأدنى والأوسط بجامعة لندن بعنوان the age of the crusades عصر الحروب الصليبية، اقتباس من خطبة للسلمي في الجامع الأموي ألقاها سنة 1105م داعيا فيهل إلى الجهاد ضد غزاة أرض الإسلام في المغرب والشرق، ويقرر هولت أن السلمي هو أول من حث على الجهاد ضد المغيرين في ذلك الزمان. ويستنتج أن الدعوة الأولى للجهاد ضد الصليبيين لم تصدر عن مجالس الحكام بل صدرت عن محافل العلماء المسلمين من أساتذة وكتاب (HOLT.P27)
9. انظر في كتر العمال ج 6 الحديث رقم 14738
10. انظر النص المتبقي من مخطوط السلمي "160 صفحة" في المجلد 53 من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية د. سهيل زكار
11. المصدر نفسه "أربعة كتب في الجهاد" ص 45
12. المصدر نفسه ص 50
13. المصدر نفسه ص 47
14. عضو اتحاد المؤرخين العرب - عضو اللجنة التنفيذية للجمعية العربية للعلوم السياسية.